العنوان:	وجهة نظر في تراث الإمام أبي الحسن الأشعري
المصدر:	مجلة الإبانة
الناشر:	الرابطة المحمدية للعلماء - مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية
المؤلف الرئيسي:	بطار، عبدالقادر
المجلد/العدد:	ع 1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2013
الشهر:	يونيو / رجب
الصفحات:	99 - 115
DOI:	10.12816/0002388
رقم MD:	468950
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	العلماء المسلمون، أبو الحسن الأشعري ، علي بن إسماعيل بن إسحاق ، ت. 324 هـ، الإنتاج الفكري ، الفكر الإسلامي ، علم الكلام
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/468950



وِجهة نظر فِي تراثِ الإمامِ أبِي الحسنِ الأشعرِي

د. عبد القادر بطار[1]

اهتم العلماء والباحثون قديما وحديثا بآثار الإمام أبي الحسن الأشعري ﷺ، وكان طبيعيا أن يهتموا بتراثه، وأن يحتفلوا بآرائه، لكونه رائدا روحيا لأغلب المسلمين في المشرق والمغرب، صحيح أن آراء الإمام الأشعري لم تحرر بشكل نهائي إلا على يد المتقدمين والمتأخرين من الأشاعرة، من أمثال القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (المتوفى سنة:403هـ) وإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني (المتوفى سنة:478هـ) وهما من المتقدمين، والإمام أبي حامد الغزالي حجة الإسلام (المتوفى سنة:505هـ) والإمام فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي (المتوفى سنة:606هـ) وهما من المتأخرين، ولذلك فإن المتأمل في مؤلفات الإمام الأشعري، المتفحص لمقالاته، يجد نفسه أمام صورتين مختلفتين نسبيا للمذهب الأشعري: صورة قريبة من منهج أهل الحديث، وهي التي يمكن أن نطلق عليها الصورة النقلية للعقائد الإيمانية، ويمثلها كتاب "الإبانة" وكتاب "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين" و"رسالة إلى أهل الثغر". وصورة ناضجة، تعنى بتصحيح مذهب المعتزلة، وتقرير مذهب أهل السنة والجماعة في صورته البرهانية، ويمكن أن نسميها بالصورة العقلية للعقائد الإيمانية، ويمثل هذه الصورة كتاب "اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع" وكتاب"مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري" من إملاء الإمام أبي بكر محمد بن الحسن بن فورك (المتوفى سنة

1- أستاذ العقيدة والمذاهب الكلامية بجامعة محمد الأول كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ وجدة- المغرب.

406هـ) وهذا الكتاب يعنى أساسا بعرض أصول المذهب الأشعري، والأدلة التي ينبني عليها، انطلاقا من مؤلفات ونصوص الإمام الأشعري نفسه، ثم "رسالة استحسان الخوض في علم الكلام" للإمام الأشعري، وهي رسالة في المنهج، تتخطى الصورة النقلية غير الناضجة قليلا.

لقد اعتاد كثير من الباحثين والدارسين الحديث عن تراث الإمام الأشعري اعتمادا على أثبات، منها ثبت الأستاذ أبي بكر بن فورك الذي أشار فيه إلى أسماء أكثر كتب الإمام الأشعري، التي ألفها إلى حدود سنة: 320هـ حيث بلغت تسعا وستين مؤلفا، والتي ذكرها الإمام الأشعري نفسه في كتابه "العمد في الرؤية" وعليه عول ابن عساكر الدمشقي في كتابه"تَبْيِينُ كَذِبِ الْمُفْتَرِي فِيمَا نَسَبَ إِلَى الإِمَامِ الأَشْعَرِي". وقد أضاف ابن فورك إلى هذه القائمة بعضَ المؤلفات، والتي بلغت ستا وعشرين كتابا، إلى حدود سنة:324هـ وهي السنة التي توفي فيها الإمام الأشعري رحمه الله، كما أضاف ابن عساكر الدمشقي إلى قائمة ابن فورك ثلاث رسائل للإمام الأشعري، فيكون مجموع مؤلفات الإمام الأشعري التي تضمنتها الأثبات الثلاثة، ثبت الإمام الأشعري، وثبت ابن فورك، وثبت ابن عساكر الدمشقي ثمانية وتسعين مؤلفا[1].

ويستنتج بعض الباحثين من هذه الأثبات الثلاثة، أن ما أورده الإمام الأشعري في كتابه "العمد" لا يرد فيه العنوان الأصلي، بل وصفُ موضوع الكتاب، وهذا لا يفيدنا في معرفة صحة الكتب التي نسبت إلى الإمام الأشعري، و لم ترد في هذه الأثبات، كما يلاحظ هذا الباحث أيضا أن تلك الأثبات خلت من ذكر ثلاثة كتب وصلت إلينا منسوبة إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، وهي:

1. الإبانة عن أصول الديانة.

1- تبيين كذب المفتري فيما نَسَبَ إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر الدمشقي، الصفحة: 128 وما بعدها، طبعة دار الكتاب العربي بيروت.

2. رسالة استحسان الخوض في علم الكلام.
3. رسالة كتب بها إلى أهل الثغر بباب الأبواب[1].

قلت: إن معظم مؤلفات الإمام الأشعري رحمه الله، التي عرضتها تلك الأثبات، وكما يظهر من عناوينها ووصفها المقتضب، أنها يغلب عليها طابع الرد، أو نقض بعض الآراء المخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة، وهذا الحكم يشمل حتى تلك التي ألفها الإمام الأشعري في السنوات الأخيرة من عمره، والتي رد فيها على شيوخ الاعتزال وغيرهم من الفلاسفة والملحدين...مما يعني أن هذا الإمام العظيم ظل يدافع عن عقائد أهل الحق إلى أن توفي رضي الله عنه سنة: 324هـ أما المؤلفات الثلاثة التي أشار إليها هذا الباحث فسوف نتحدث عنها بشيء من التفصيل ضمن حديثنا عن تراث أبي الحسن الأشعري الذي وصلنا وذلك على النحو الآتي:

مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين

طبع هذا الكتاب بتصحيح المستشرق الألماني هلموت ريتر. وهو يتناول في قسمه الأول جليل الكلام ومذاهب الفرق فيه، كما يتناول في قسمه الثاني مسائل في دقيق الكلام وآراء مختلف الفرق فيها. وقد أشار ابن عساكر الدمشقي إلى هذا المصنف باسم "مقالات المسلمين" وذكر أن الإمام الأشعري استوعب فيه جميع اختلافهم ومقالاتهم[2]. ولعل تسميته بمقالات المسلمين أقرب إلى عصر المؤلف من لفظ "الإسلاميين" لأن استعمال هذا التعبير كما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي غير مألوف، لا نعرف له نظيرا عند أحد، لا في عصر الأشعري ولا قبله، وماذا يحوج الأشعري إلى استعمال المنسوب: إسلامي وإسلاميين، وقد جرى العرف واستقر الاستعمال في القرآن والسنة على استعمال اسم الفاعل: مسلم ومسلمين. لهذا نرى أنه ينبغي أن يسمى الكتاب كما ورد في الأثبات

1- مذاهب الإسلاميين، الدكتور عبد الرحمن بدوي، الصفحة: 515 طبعة دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى: 1971.
2- تبيين كذب المفتري فيما نَسَبَ إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر الدمشقي، الصفحة 130.

هكذا: مقالات المسلمين مهما جاء في عنوانات المخطوطات[1].

ومهما يكن من شيء فإن كتاب"مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين" كان متداولا بهذا الاسم عند كثير من العلماء قديما، وليست هذه التسمية من وضع المتأخرين. فقد أشار ابن تيمية إلى هذا الكتاب في أكثر من موضع بهذا الاسم "مقالات الإسلاميين"[2].

وتأتي أهمية هذا الكتاب من كونه يتضمن مختلف آراء الفرق الإسلامية بعيدا عن التحيز والتعصب المذهبي، فضلا عن كونه من أقـــدم المصنفـــات في هذا البـــاب. فقد عرض الإمام الأشعري في هذا المصنف مذاهب خصومه بدقة وأمانة، ثم بعد ذلك رد عليهم ردا علميا هادئا.

وقد أثنى ابن تيمية على هذا الكتاب واعتبره من أجمع الكتب وأبسطها في عرض عقائد السلف، فيقول عنه: «وكتاب "المقالات" للأشعري أجمع هذه الكتب وأبسطها، وفيه الأقوال وتحريرها ما لا يوجد في غيرها، وقد نقل مذهب أهل السنة والحديث بحسب ما فهمه وظنه قولهم، وذكر أنه يقول بكل ما نقله عنهم»[3].

لقد التزم الإمام الأشعري الموضوعية في نقل مقالات الفرق الإسلامية، مخالفا بذلك كثيرا من المؤلفين، الذين اتسم منهجهم بالقصور، بل كان هذا القصور المنهجي الذي لاحظه الإمام الأشعري سببا في إقدامه على صناعة كتابه "مقالات الإسلاميين" حيث صرح في مقدمته قائلا :«...ورأيت الناس في حكاية ما يحكون من ذكر المقالات، ويصنفون في النحل والديانات، من بين مقصر فيما يحكيه، وغالط فيما يذكره من قول مخالفه، ومن بين معتمد للكذب في الحكاية، إرادة التشنيع على من يخالفه، من بين تارك

1- مذاهب الإسلاميين، الدكتور عبد الرحمن بدوي، الجزء الأول المعتزلة والأشاعرة، الصفحة: 529.

2- انظر كتابه منهاج السنة النبوية، ج: 104/2 و217 و552 وج: 303/6 بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم. مؤسسة قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع بدون تاريخ.

3- منهاج السنة النبوية: 303/6.

للتقصي في روايته لما يرويه، من اختلاف المختلفين، ومن بين من يضيف إلى قول مخالفيه ما يظن أن الحجة تلزمهم به، وليس هذا سبيل الربانيين، ولا سبيل الفطناء المتميزين، فحداني ما رأيت من ذلك على شرح ما التمست شرحه من أمر المقالات، واختصار ذلك وترك الإطالة، والإكثار...»[1].

وقد تحدث الإمام الأشعري في هذا الكتاب عن مقالات الفرق الإسلامية التي حصرها في عشرة أصناف وهي: الشيعة، والخوارج، والمرجئة، والمعتزلة، والجهمية، والضرارية، والحسينية، والعامة، وأصحاب الحديث، والكلابية. وقد كـــان متسامحا مع الجميع، حيث يعترف لهم بالانتماء إلى الإسلام، فيقول: «اختلف الناس بعد نبيهم ﷺ في أشياء كثيرة، ضلل فيها بعضهم بعضا، وبرئ بعضهم من بعض، فصاروا فرقا متباينين، وأجزاء متشتتين، إلا أن الإسلام يجمعهم ويشتمل عليهم»[2].

ومن المباحث التي جعلت أئمة المذهب الحنبلي المتأخرين يهتمون بهذا الكتاب، ويحتفلون به، ويثنون على صاحبه، على غير عادتهم مع التراث الأشعري، كما فعل ابن تيمية رجل المذهب الحنبلي المتأخر، هو ما حكاه الإمام الأشعري من مقالات أصحاب الحديث وأهل السنة، والتي ختمها بعبارة جعلته يحظى بالقبول في الدوائر الحنبلية، وهي قوله: «فهذه جملة ما يأمرون به، ويستعملونه، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب...»[3].

قلت: إن ما حكاه الإمام الأشعري في هذا المبحث الذي هو عبـــارة عن بيـــان لجملة من العقائد الإيمانية، هو ما يعتقده عامة أهل السنة والجماعة، بيد أن ما أضافه الشراح

1- مقالات الإسلاميين، واختلاف المصلين، للإمام الأشعري، الصفحة:1 عني بتصحيحه هلموت ريتر الطبعة الثالثة سنة: 1980 دار النشر فرانز شتايز بفيبنادن.

2- مقالات الإسلاميين، الصفحة: 1.

3- مقالات الإسلاميين، الصفحة: 297.

المتأخرون من جميع المدارس السنية من أشاعرة، وماتريدية، وأهل الحديث، لتلك العقائد والأصول هو الذي وقع فيه الاختلاف والتفاوت، نظرا لاختلاف الأصول والقواعد المقررة عند كل مدرسة من تلك المدارس السنية.

وقد غاب عن هؤلاء الشيوخ أن الإمام الأشعري الذي حظي بالقبول والثناء بفضل ما حكاه وتبناه من عقائد إيمانية في هذا المبحث "السلفي" أنه بعده مباشرة أورد بعض مقالات أصحاب عبد الله بن سعيد القطان المشهور بابن كلاب (المتوفى سنة: 241هـ) وأثنى عليهم وقرر أنهم يقولون بأكثر ما ذكره عن أهل السنة[1].

وهذا الاستنتاج الذي خلص إليه الإمام الأشعري في سياق حكايته لبعض مقالات المدرسة الكلابية التي تأثر بها فيما بعد، لا أعتقد أن شيوخ المذهب الحنبلي المتأخر يقبلون به، فتأمل.

اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع

وهو مصنف مختصر عرض فيه الإمام الأشعري عقائد أهل السنة والجماعة عرضا دقيقا يعتمد النظر العقلي والنقلي معا، مع التوسل بأسلوب الجدل الكلامي المبني على الصيغ الآتية: "فإن قال قائل...قيل له..." ومعظم التساؤلات التي يجريها الإمام الأشعري على لسان معترض مفترض هو ما يورده المعتزلة من اعتراضات مشهورة على الأشاعرة.

ويعد كتاب "اللمع" من وجهة نظر أحد الدارسين المعاصرين أنضج من كتاب "الإبانة عن أصول الديانة" وأقرب أن يكون الأشعري الذي تصوره التاريخ، وتأثر به التلاميذ، واحتفل له علم الكلام، ولأنه عرض عقلي دقيق الحجة، وليس مجرد إعلان عقيدة profession de foi كما هي حال "الإبانة"[2]...

كما يستنتج باحث آخر أن الإمام الأشعري في هذا الكتاب «يبدو أعمق تفكيرا،

1- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، للإمام الأشعري، الصفحة: 298.

2- مذاهب الإسلاميين الدكتور عبد الرحمن بدوي: 533/1.

وأسلم منهجا، وأشد عناية بالأدلة العقلية إلى درجة التعقيد أحيانا»[1].

وهذا الكتاب على صغر حجمه فقد اشتمل على أساسيات المذهب الأشعري، بدأ بالتدليل على وجود الخالق عز وجل وتوحيده وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:9] ومرورا بالصفات والقدر والاستطاعة والتعديل والتجوير والإيمان والنبوات...وانتهاء بالكلام في الإمامة. وتحديدا إمامة أبي بكر الصديق ﵁.

لقد ركز الإمام الأشعري في هذا المبحث الأخير على إثبات إمامة أبي بكر الصديق ﵁، باعتماد أدلة نقلية وعقلية، فضلا عن إجماع المسلمين على مبايعتهم له خليفة لرسول الله ﷺ، ومن ثم يظهر جليا فساد قول من قال: إن النبي ﷺ نص على إمامة غيره. كما يظهر فساد هذا القول من خلال تصرف أبي بكر الصديق مع عمر بن الخطاب ﵄، فقد قال أبو بكر لعمر يوم السقيفة: أبسط يدك أبايعك، فلو كان رسول الله ﷺ نص على إمامة علي ﵁ لم يجز أن يقول: ابسط يدك أبايعك[2].

رسالة إلى أهل الثغر

وقد أشار ابن عساكر الدمشقي إلى هذا الكتاب فيما أضافه إلى قائمة ابن فورك التي تضمنت عددا وافرا من تصانيف الإمام الأشعري، قائلا: هذا آخر ما ذكره أبو بكر بن فورك من تصانيفه، وقد وقع إلي أشياء لم يذكرها في تسمية تواليفه...فمنها: جواب عن مسائل كتب بها إلى أهل الثغر في تبيين ما سألوه عنه من مذهب أهل الحق[3].

وبهذا تكون هذه الرسالة صحيحة النسبة إلى الإمام الأشعري، وقد أشار إليها ابن تيمية واستشهد بها أحيانا[4].

1- مقدمة الدكتور حمودة غرابة، لكتاب "اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع" الصفحة: 4 المكتبة الأزهرية للتراث، مصر بدون تاريخ.

2- اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، للإمام الأشعري، تحقيق: الدكتور حمودة غرابة صفحة: 13 وما بعدها.

3- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري، لابن عساكر الدمشقي، الصفحة: 136.

4- منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، ج: 303/1 وج: 268/2.

وقد عرف فقهاء الغرب الإسلامي رسالة مماثلة تنسب إلى أبي عبد الله محمد بن مجاهد الطائي البصري، صاحب أبي الحسن الأشعري، فيما التمسه فقهاء أهل الثغر بباب الأبواب من شرح أصول مذاهب التابعين للكتاب والسنة. فهل هذا الكتـــاب هو نفسه كتـــاب أبي الحسن الأشعري، الموسوم برسالة إلى أهل الثغر، أو هو كتاب آخر لابن مجاهد؟[1].

وقد حرص الإمام الأشعري في هذه الرسالة على إبانة معتقد أهل السنة والجماعة في نطاق ما أجمع عليه «السلف من الأصول التي نبهوا بالأدلة عليها، وأمروا في وقت النبي ﷺ بها». كما يقول الإمام الأشعري[2].

وكتاب "رسالة إلى أهل الثغر" في بنائها الكلامي العام عبارة عن أجوبة موجهة أساسا إلى الفقهاء والعلماء من أهل الثغر بباب الأبواب[3] في شكل إجماعات تؤكد فضيلة الاتباع وتنفر من الابتداع، وهي تشتمل على واحد وخمسين إجماعا، تتناول مسائل عقدية مختلفة على طريقة أهل السنة والجماعة، فقد جاء في الإجماع الواحد والخمسين وهو الأخير: فهذه هي الأصول التي مضى الأسلاف عليها، واتبعوا حكم الكتاب والسنة بها، واقتدى بهم الخلف الصالح في مناقبها[4].

1- فهرست ابن خير الإشبيلي، لأبي بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي، الصفحة: 223 وضع حواشيه محمد فؤاد منصور، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى: 1998.

2- رسالة إلى أهل الثغر، للإمام الأشعري، الباب الثاني، وقد نشرت هذه الرسالة سنة: 1928 كما نشرها الدكتور محمد السيد الجلنيد بعنوان "أصول أهل السنة والجماعة، المسماة برسالة إلى أهل الثغر" بالمكتبة الأزهرية للتراث، بدون تاريخ، كما قام بتحقيقها: عبد الله شاكـــر محمد الجنيدي في إطار نيل شهادة العالمية في شعبة العقيدة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وطبعت سنة: 1988. ويلاحظ أن تعليقات المحقق وحواشيه لا تخلو من تعصب مذهبي ينتهي إلى التجسيم المرفوض إسلاميا.

3- باب الأبواب عبارة عن ممر وحصن في الطرف الشرقي من القوقاز في دربند الفارسية، وسمي في العصر الحديث باسم باب الحديد، أو الباب الحديدي، وقد أسعفهم الإمام الأشعري بالإجابة عن أسئلتهم نظرا لأهمية هذا الموقع بوصفه ثغرا من ثغور الإسلام، انظر: مذاهب الإسلاميين، الدكتور عبد الرحمن بدوي: 521/1.

4- رسالة إلى أهل الثغر، للإمام الأشعري، الصفحة: 311، بتحقيق عبد الله شاكر محمد الجنيدي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الثانية: 2002.

وجدير بالذكر أن هذه الرسالة ألفها الإمام الأشعري قبل سنة: 300هـــ وقد ورد في صلبها ما يؤكد هذا الاستنتاج، حيث يقول في مقدمتها: ووقفت أيدكم الله على ما ذكرتموه من إحمادكم جوابي على المسائل التي كنتم أنفذتموها إلي في العام الماضي، وهو سنة سبع وتسعين ومائتين (297)...وبهذا يكون تاريخ تأليف هذه الرسالة تحديدا هو سنة 298[1].

وقد ورد في بعض النسخ على سبيل الخطأ: ووقفت أيدكم الله على ما ذكرتموه من إحمادكم جوابي على المسائل التي كنتم أنفذتموها إلي في العام الماضي، وهو سنة سبع وستين ومائتين (267)...وهو خطأ بين، لأن عمر الإمام الأشعري كان حينئذ سبع سنوات، لأنه ولد على الأرجح سنة: 260هـــ ولا يتصور أن يحرر جوابا عن مسائل في غاية الدقة وهو في هذه السن المبكرة[2].

الإبانة عن أصول الديانة

هذا الكتاب لم يرد ذكره ضمن قائمة ابن فورك، و لم يتحدث عنه الإمام الأشعري في كتابه "العمد" كما أن ابن عساكر الدمشقي لم يشر إليه فيما استدركه على ابن فورك، وهذا كله غير كاف في الحكم على عدم صحة نسبة الكتـــاب إلى الإمام الأشعري، لأن ابن عساكر الدمشقي نفسه استشهد بكتاب "الإبانة" ونقل منه فصلا طويلا للتدليل على حسن اعتقاد الإمام الأشعري، يقول ابن عساكر: «فاسمع ما ذكره في كتابه الذي سماه بالإبانة...»، ثم يقول في آخر هذا النص: «فتأملوا رحمكم الله هذا الاعتقاد ما أوضحه وأبينه، واعترفوا بفضل هذا الإمام العالم الذي شرحه وبينه، وانظروا سهولة لفظه فما

1- أصول أهل السنة والجماعة، المسماة برسالة إلى أهل الثغر، للإمام الأشعري، الصفحة: 30، بتحقيق الدكتور محمد السيد الجليند، الصفحة: 30 المكتبة الأزهرية للتراث، مصر بدون تاريخ.

2- مقدمة الدكتور محمد السيد الجليند، لأصول أهل السنة والجماعة، المسماة برسالة إلى أهل الثغر، للإمام الأشعري هامش الصفحة: 30.

أفصحه وأحسنه...»[1]. لقد سلك الإمام الأشعري في كتابه "الإبانة" منهجا وسطا بين المعتزلة والنصيين، وقد كان في هذا الكتاب أقرب إلى مذهب أصحاب الحديث القائم على التفويض، بغرض التدرج بالنصيين إلى مستوى يمكنهم من إدراك جوهر التوحيد الإسلامي القائم على نفي التشبيه والتجسيم بجميع أشكاله وألوانه، ليحقق بعد ذلك التتريه المطلق في صورته النقلية والعقلية معا، في نطاق تمثل النص القرآني المحكم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:9]، فضلا عن إظهار العقائد الإسلامية في صورها العقلية والفطرية وتخليصها من أسباب التشبيه والتجسيم التي تنتهي إليها القراءة الحرفية للنصوص الدينية الموهمة للتشبيه.

لقد ألف الإمام الأشعري كتابه "الإبانة" كما يذهب إلى ذلك الشيخ زاهد الكوثري على طريقة المفوضة في الإمساك عن تعيين المراد، وهو مذهب السلف، وأراد بها انتشال المتورطين في أوحال التشبيه من الرواة، والتدرج بهم إلى مستوى الاعتقاد الصحيح...[2].

ولعل النزعة الحنبلية لكتاب "**الإبانة عن أصول الديانة**" هي التي جعلت الخطاب السلفي المعاصر يشتغل على هذا الكتاب دراسة وتحقيقا، ومن أوسع التحقيقات التي صدرت في السنوات الأخيرة: تحقيق الدكتورة فوقية حسين محمود، وتحقيق أبي عمرو محمد بن علي بن ريحـــان الذي أسرف في صناعة هوامش هي عبارة عن نقـــول لكلام ابن تيمية ومن سار على نهجه من المعاصرين، وليس في هذه الهوامش أي إبداع حاشا إثقال الكتاب بكلام مكرر ينقله اللاحق عن السابق. بخلاف عمل الدكتورة فوقية حسين محمود التي قدمت لكتاب "الإبانة" بدراسة وافية وتحليل أدبي لمضامين الكتاب[3].

1- تبيين كذب المفتري فيما نَسَبَ إلى الإمام الأشعري، لابن عساكر الدمشقي، الصفحة: 152 وما بعدها.

2- نظرة علمية في نسبة كتاب الإبانة جميعه إلى الإمام الأشعري، الصفحة: 9 تأليف سليمان غاوجي، دار ابن حزم بيروت، الطبعة الأولى: 1989.

3- طبع كتاب "الإبانة عن أصول الديانة" للإمام الأشعري مع دراسة وافية بتحقيق الدكتورة فوقية حسين. كما طبع في مجلدين بتحقيق أبو عمرو محمد بن علي بن ريحان، طبعة دار الإبانة، مصر سنة: 2007، وقد سبق وأن طبع طبعتين واحدة بحيدر أباد بالهند سنة: 1321هـ وبالقاهرة سنة: 1348هـ بدون تحقيق علمي. كما ترجمه إلى الإنجليزية كلين سنة: 1940.

ولا يمكن أن نغمض عن تحقيق آخر لكتاب "**الإبانة عن أصول الديانة**" صدر في السنوات الأخيرة لأحد المعاصرين، ليس لأهمية هذا التحقيق، بل لشذوذه وابتعاده عن مناهج العلماء في التحقيق العلمي الرصين، وتطاول صاحبه على الإمام الأشعري ﵁، ووصفه بأوصاف يتنزه عنها هذا الإمام العظيم[1].

رسالة استحسان الخوض في علم الكلام

وتعرف أيضا بـــ"رسالة الحث على البحث"، ومضمونها كما يدل عليه عنوانها هو التدليل على جواز الاشتغال بعلم الكلام الذي حكم بعض النصيين بتحريمه، وفي أحسن الأحوال بتبديع المشتغل به، على الرغم من أهميته وشرف موضوعه[2].

في هذه الرسالة يدافع الإمام الأشعري عن علم الكلام ويعتبره من جملة العلوم الإسلامية، ليس هذا فحسب بل يقرر أن أصول هذا العلم مأخوذة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة، واجتهادات العلماء في رد الفروع إلى الأصول.

وإذا كان كثير من العلماء لم يقبلوا بعلم الكلام في بداية الأمر، فلأنه كان يحيل على مقالات مبتدعة في الدين، ولأن أصحاب تلك المقالات كانوا يمثلون شذوذا في المنهج

1- يتعلق الأمر بتحقيق السيد حسن بن علي السقاف"لكتاب الإبانة عن أصول الديانة" والذي صدر عن دار الإمام النووي، بيروت/لبنان الطبعة الأولى: 2005.

2- انظر نص هذه الرسالة في: "علم الكلام عرض ونقد" ملحق: (2) الصفحة: 178 تأليف الدكتور عمر النجار، وأيضا "مذاهب الإسلاميين": 15/1 للدكتور عبد الرحمن بدوي.

وقد شكك في صحة نسبة هذه الرسالة إلى الإمام الأشعري الدكتور عبد الرحمن بدوي، انظر كتابه: مذاهب الإسلاميين:181/1، والدكتورة فوقية حسين محمود، انظر: مقدمة تحقيق كتاب الإبانة عن أصول الديانة للإمام الأشعري ص: 72. ومهما يكن من شيء فإن الآراء التي تتضمنها تلك الرسالة تعبر عن وجهة نظر الأشاعرة وموقفهم الإيجابي من الاشتغال بعلم الكلام. انظر كتاب: "تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري" لابن عساكر الدمشقي، ص: 333. وقد رأينا بعض علماء الغرب الإسلامي ينحون هذا المنحى، انظر كتاب "مقدمات المراشد إلى علم العقائد"، الصفحة: 80. لابن خمير السبتي، بتحقيق أخينا الأستاذ الدكتور جمال علال البختي، وشرح السنوسية الكبرى، المسماة "عمدة أهل التوفيق والتسديد" للإمام السنوسي، ص: 50.

والاعتقاد. لقد استند جل العلماء الذين رفضوا علم الكلام أنه من الأمور التي لم يشتغل بها السلف الصالح الذين اهتموا ببيان الأحكام الشرعية التي تشتد الحاجة إليها أكثر.

فهذا الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه يصرح أنه يكره الكلام في الدين، اقتداء بأهل بلده الذين كانوا يكرهون الكلام إلا فيما تحته عمل، وهو نفس اختيار الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهما.

وهناك نصوص كثيرة تحذر من الاشتغال بعلم الكلام، وقد عمد بعض المعاصرين إلى إحياء هذه النصوص والتحمس لها وحملها على كل من يشتغل بعلم الكلام من العلماء بدون تمييز بين كلام وكلام. بل بدون فقه لتلك النصوص والسياقات التاريخية التي وردت فيها، حتى أفضى بهم الأمر إلى تبديع كبار العلماء من مختلف المذاهب السنية، بسبب اشتغالهم بهذا العلم الإسلامي، الذي يمكن تقسيمه إلى قسمين:

القسم الأول: كلام هو عبارة عن بيان للعقائد الإيمانية التي استقرت عليها الأمة، وتأييد لها بأدلة عقلية، ويمكن تسمية هذا القسم بالكلام السني أو الكلام المحمود. والثاني: كلام هو عبارة عن مقالات مبتدعة في مجال الاشتغال العقدي الإسلامي، ظهرت على يد أناس اشتهروا بمخالفة عقائد السلف الصالح. ويمكن تسمية هذا القسم بالكلام البدعي أو الكلام المذموم، وعلى هذا القسم الأخير تتنزل انتقادات العلماء لعلم الكلام التي بدأت مع عصر التابعين.

ويستنتج الإمام الباجي من أثر يرويه الإمام مالك في الموطأ أن قول من قال من علماء التابعين أنهم كانوا يكرهون الكلام فيما ليس تحته عمل، إنما ينصرف إلى أحد أمرين: إما أن يتوجه المنع في ذلك لمن ليس من أهل العلم ممن يُخاف أن تزل قدمه، ويتعلق قلبه بشبهة لا يقدر على التخلص منها...والوجه الثاني: أن يتوجه المنع في ذلك إلى من يتكلم في ذلك بمذاهب أهل البدع ومخالفي السنة[1].

1- المنتقى شرح الموطأ للقاضي أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي: 267/9 تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى: 1999.

رسالة في الإيمان

أشار ابن عساكر الدمشقي إلى هذه الرسالة فيما أضافه إلى قائمة ابن فورك[1]، وقد طبعت هذه الرسالة في بضعة أوراق، وقد أملاها الإمام الأشعري ببغداد، وهي تعالج مسألة الإيمان، هل هو مخلوق أو غير مخلوق؟ وقد اعتبر الإمام الأشعري في هذه الرسالة أن الإيمان، إذا أطلق و لم يضف إلى مخلوق كان داخلا في جملة صفات الله تعالى ومشابها لها، وهو بمترلة التوحيد[2].

وهذه المسألة مما توسط فيه الإمام الأشعري ﷺ أيضا، فقد قالت المعتزلة والجهمية والنجارية: الإيمان مخلوق على الإطلاق، وقالت الحشوية والمجسمة الإيمان قديم على الإطلاق، فسلك الإمام الأشعري ﷺ طريقة بينهما، وقال: الإيمان إيمانان، إيمان الله فهو قديم، لقوله عز وجل ﴿ٱلْمُومِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: 23] وإيمان للخلق فهو مخلوق، لأنه منهم يبدو، وهم مثابون على إخلاصه، معاقبون على شكه[3].

مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري

هذا الكتاب ليس من تأليف الإمام الأشعري، بل هو من إملاء الأستاذ أبي بكر محمد بن الحسن بن فورك، وقد أدرجناه ضمن تراث الإمام الأشعري لأنه يعبر عن اختيارات الإمام الأشعري وأقواله ومقالاته في المسألة الواحدة، وأكثر من ذلك فهو صادر عن خبير بآراء الإمام الأشعري وتطورها، مما يجعله أكثر استيعابا للمذهب الأشعري، ويجعلنا أكثر اطمئنانا لما قرره في هذا الكتاب، الذي يعد بحق كتابا في أصول المذهب الأشعري أكثر

1- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر الدمشقي، الصفحة:136.

2- مسألة في الإيمان، للإمام الأشعري، الصفحة: 7 تحقيق جلال الجهاني، عن موقع الإمام الأشعري.www.ashari.net ، وقد قمت بمقابلة هذه الطبعة على نسخة خطية خاصة.

3- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري، لابن عساكر الدمشقي، الصفحة:150.

منه كتابا في بيان العقائد الإيمانية وتقريرها على طريقة الأشاعرة[1].

ونسجل أن "مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري" الذي اعتمد فيه ابن فورك على عدد مهم من مؤلفات الإمام الأشعري لم تتم الإشارة فيه إلى كتاب "الإبانة عن أصول الديانة" وكذا "رسالة إلى أهل الثغر" مما يجعلنا أمام صورة أخرى للمذهب الأشعري، أو المذهب الأشعري كما تصوره الإمام الأشعري نفسه وكما تصوره تلامذته من بعده، في ذكر بعض القضايا الدقيقة في علم الكلام.

وصفوة القول فإن النظر في التراث الأشعري الذي وصل إلينا على قلته يجعلنا نخلص إلى النتائج الآتية:

أولا: أن النقاش حول التراث الأشعري سيظل مفتوحا، ومن ثم من الصعوبة بمكان استخلاص عقائد أشعرية نهائية انطلاقا من هذا التراث، وفي أحسن الأحوال يمكن استخلاص صورتين مختلفتين للمذهب الأشعري كما ألمحنا إلى ذلك من قبل.

ثانيا: أن الغرب الإسلامي لم يتأثر بتراث أبي الحسن الأشعري مباشرة، بل تأثر بتراث الباقلاني والجويني تحديدا، وكان الجويني الأكثر حضورا في هذا القطر من العالم الإسلامي، حيث «أملى في الطريقة كتاب "الشامل" وأوسع القول فيه، ثم لخصه في كتاب "الإرشاد" واتخذه الناس إماما لهم» كما يقول عبد الرحمن ابن خلدون[2].

1- طبع كتاب مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، من إملاء الأستاذ أبي بكر محمد بن الحسن بتحقيق المستشرق دانيال جيماريه طبعة دار الشروق، بيروت.

2- مقدمة ابن خلدون:976/3 تحقيق: الدكتور عبد الواحد وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع سنة 2004. إننا نتفق مع ابن خلدون فيما ذهب إليه في اعتماد الإمام الجويني إماما في العقائد، ولكن الأمر الذي نختلف معه فيه هو اعتبار كتاب "الإرشاد" مجرد تلخيص لكتابه "الشامل" فقد وردت إشارة صريحة في "الإرشاد" تفيد بأن كتاب "الشامل" تأخر تأليفه عن "الإرشاد" يقول الجويني: والذي عندي أن إجماع علماء سائر الأمم في الأحكام على موجب ما طردناه يوجب العلم جريا على مستقر العادة، وهذا حسن بالغ، وسنبسطه في "الشامل" انظر: "الإرشاد" الصفحة: 418 تحقيق: الدكتور محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد، مكتبة الخانجي مصر. وقد فاتت المحققين هذه المسألة متابعة وتقليدا لابن خلدون فاعتبرا "الإرشاد" مجرد تلخيص للشامل، انظر: مقدمة تحقيق كتاب الإرشاد الصفحة: س.

وأكثر من ذلك فإن الإمام الجويني حاضر في أسانيد رواية علماء المغرب للمذهب الأشعري في سياق حديثهم عن سلسة أصول الدين[1].

ثالثا: أن الإمام الجويني نفسه حصل له تطور في تقرير العقائد الإيمانية على الطريقة الأشعرية، ومن أشهر المسائل التي حصل له فيها تطور ملحوظ موقفه من تأويل النصوص المتشابهة التي وردت في الكتاب والسنة، ففي كتابه "الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد" رأيناه يعمد إلى تأويل بعض الظواهر، لكنه في كتابه الموسوم "بالعقيدة النظامية في الأركان الإسلامية" يصرح بعدم التأويل، يقول الإمام الجويني: وقد اختلفت مسالك العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة، وامتنع على أهل الحق اعتقاد فحواها، وإجراؤها على موجب ما تبتدره من أفهام أرباب اللسان منها، فرأى بعضهم تأويلها والتزام هذا المنهج في آي الكتاب والسنة، وما يصح من سنن الرسول ﷺ.

وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب تعالى. والذي نرتضيه رأيا، وندين الله به عقلا: اتباع سلف الأمة، فالأولى الاتباع وترك الابتداع، والدليل السمعي القاطع في ذلك: أن إجماع الأمة حجة متبعة، وهو مستند معظم الشريعة[2].

وهذا النص كثيرا ما يستشهد به الخطاب السلفي المعاصر في نطاق تهويل بعض المواقف الكلامية من جهة، والتدليل على أن الإمام الجويني قد تراجع عن أشعريته من جهة ثانية، وهي دعوى غير صحيحة، لأن الإمام الجويني رفض تأويل النصوص المتشابهة فقط، واختار لغة التفويض، كما هي طريقة السلف الصالح، لكنه لم يتراجع البتة عن طريقة الأشاعرة في تقرير العقائد الإسلامية، وكيف يتراجع عنها وهي من جملة ما يعتقده عامة

1- صلة الخلف بموصول السلف، محمد بن سليمان الروداني، الصفحة: 465، تحقيق الدكتور محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى: 1988.

2- العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، للجويني، الصفحة: 32، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث: 1992.

أهل السنة والجماعة.

رابعا: لقد خص الإمام الأشعري المعتزلة بالنصيب الأوفر من نشاطه العلمي، حيث إن معظم كتبه يرد فيها على شيوخ الاعتزال ويحلل خطابهم تحليلا علميا يكشف من خلاله تمويههم وشبههم، كما أنه لم يكن أستاذا في العقيدة فقط بل كان مؤرخا للعقائد من الصنف الأول أيضا. كما كانت له قدم راسخة في علوم الشريعة[1].

وبعد، فهذه وجهة نظر في تراث الإمام أبي الحسن الأشعري، مؤسس المذهب، الذي مضى عليه أحد عشر قرنا، ولا يزال خصبا يشد أنظار الباحثين والمهتمين بالدراسات الكلامية، آملين أن ينهض الباحثون في العالم الإسلامي للكشف عن جوانب أخرى من هذا التراث الإسلامي العظيم.

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

المصادر والمراجع

- الأشعري أبو الحسن، أصول أهل السنة والجماعة، المسماة برسالة إلى أهل الثغر، بتحقيق الدكتور محمد السيد الجليند- المكتبة الأزهرية للتراث، مصر بدون تاريخ.
- الأشعري أبو الحسن، اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع - الدكتور حمودة غرابة، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر بدون تاريخ.
- الأشعري أبو الحسن، رسالة إلى أهل الثغر، بتحقيق عبد الله شاكر محمد الجنيدي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الثانية: 2002.
- الأشعري أبو الحسن، كتاب "الإبانة عن أصول الديانة" للإمام الأشعري بتحقيق السيد حسن ابن علي السقاف"- صدر عن دار الإمام النووي، بيروت/لبنان الطبعة الأولى: 2005.
- الأشعري أبو الحسن، مسألة في الإيمان، - تحقيق جلال الجهاني، عن موقع الإمام الأشعري www.ashari.net.
- الأشعري أبو الحسن، مقالات الإسلاميين، واختلاف المصلين، عني بتصحيحه هلموت ريتر الطبعة الثالثة سنة: 1980 دار النشر فرانز شتايز بفينبادن.

1- الأشعري، أبو الحسن، الدكتور حمودة غرابة، الصفحة:71، مكتبة الخانجي بمصر بدون تاريخ.

- الباجي القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف، المنتقى شرح الموطأ - تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العليمة بيروت، الطبعة الأولى 1999.
- بدوي عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميين، طبعة دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى: 1971.
- ابن تيمية: منهاج السنة النبوية، بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع بدون تاريخ.
- ابن خلدون: المقدمة، تحقيق الدكتور عبد الواحد وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع سنة 2004.
- ابن خليفة الأموي أبو بكر محمد بن خير بن عمر: فهرست ابن خير الإشبيلي- وضع حواشيه محمد فؤاد منصور، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى: 1998.
- ابن عساكر الدمشقي: تبيين كذب المفتري فيما نَسَبَ إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، طبعة دار الكتاب العربي بيروت.
- ابن فورك أبو بكر محمد بن الحسن: مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، بتحقيق المستشرق دانيال جيماريه طبعة دار الشروق، بيروت.
- الجويني أبو المعالي، العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث: 1992.
- الروداني محمد بن سليمان، صلة الخلف بموصول السلف، تحقيق الدكتور محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى: 1988.
- غاوجي سليمان: نظرة علمية في نسبة كتاب الإبانة جميعه إلى الإمام الأشعري، دار ابن حزم بيروت، الطبعة الأولى: 1989.